الدورة الحادية والثلاثون لمهرجان القاهرة السينمائي الدولي

تظاهرة أمام دار الأوبرا .. و"العدو الحميم" أرّق الذاكرة الفرنسية

فيصل عبد الله
القاهرة

- بإعلان نتائج مسابقاتها الأساسية، الدولية والعربية والرقمية إضافة الى جائزة إتحاد النقاد والصحافيين السينمائيين Fipresci، تكون قد اختتمت فعاليات تظاهرة الدورة الحادية والثلاثين لمهرجان القاهرة السينمائي الدولي. تلك التظاهرة كالعادة، وكما في السنوات القليلة الماضية، لم تمر من دون ان تطلق سهام نقد قاسية شنتها الصحافة المحلية تجاه إدارتها واختياراتها مرة، وأخرى صوب الداعم المالي للمهرجان رجل الأعمال المصري نجيب ساويروس. ولئن حمل الأخير تقليص حضور الصحافة لمتابعة عروض الأفلام السينمائية والندوات الحوارية التي تليها إلا بدعوات رسمية، والتشكيك بفكرة استقلالية المهرجان عن وزارة الثقافة، مما دفع ببعض الصحافيين الى التظاهر أمام دار الأوبرا في الأيام الأولى لانطلاق هذه الدورة. فان تضاربه مع انطلاق فعاليات مهرجان القاهرة للإعلام العربي، والذي أشرفت عليها وزارة الإعلام، ولد إرباكاً مضافاً، ولو لحين، وعبر سرقة الأضواء من الأول نحو الثاني.

- ومع ذلك، فان ما دار خلف كواليس المهرجان وما أثارته من ردود أفعال عليها ليس جديداً على هذه التظاهرة، إنما في التحديات التنظيمية والجدية القادمة رياحها من مهرجانات سينمائية منافسة مثل مهرجاني مراكش ودبي الوليدين، خصوصاً ان الأخير عرف كيف يوظف سلطة المال والعمالة الأجنبية في استقطاب أسماء كبيرة كما هو الحال في دورته الرابعة. إن عثرات، على شاكلة عرض شريط سينمائي مختلف عن ذلك المبرمج، أو عدم الالتزام بمواعيد العروض المقررة وفق جدول زمني محدد، وطريقة إدارة الندوات وجعلها أكثر حيوية في اغناء وتعدد قراءات الأشرطة المعروضة بدلاً من مداخلات طويلة تتغزل بجمال ممثلة، كما حدث مع المكسيكية لورا هارينغ، او إظهار إعجاب مبالغ بشريط ما او بالعكس التنديد بصناعه. والتدقيق في الترجمات المباشرة الى اللغة العربية او تلك المطبوعة في كاتلوغ المهرجان، كما يفضحه اسم مخرج الشريط الفائز بجوائز المهرجان الأساسية إذ تحول على يد المترجم الى مخرجة، كان بالإمكان تجاوزها، لكنها بمجملها وتكرارها تضع رهانات مهرجان القاهرة السينمائي في موضع تساؤل. وهي رهانات ليست بالقليلة ولا بالهينة، ولعاصمة ذات إرث فني كبير وآخر ضارب في عمق التاريخ. ولو دققنا جدياً في فقرة المسابقة الدولية للأفلام الروائية الطويلة، وهي الأهم، لوجدناها تقريباً خالية من اكتشافات حقيقية، حتى إن قسماً منها عرض او يعرض تجارياً او سبق ان جال على مهرجانات سينمائية ثانوية.

المسكوت عنه

- شملت فقرة أفلام المسابقة الدولية، ١٨ فيلماً من ١٥ بلداً، وكان شريط "العدو الحميم" للفرنسي فلوران اميليوسيري، والذي خطف ثلاثة أهرام ذهبية، لأفضل فيلم ومخرج إضافة الى واحدة لممثله البرت دوبانتيل، الأقرب للفوز منذ البداية. وما كان قرار لجنة التحكيم، التي رأسها المخرج البريطاني نيكولاس روج وضمت في عضويتها المخرج البولوني والكاتب كريستوف زانوسي والممثلة التركية نورغول ياسيلكاي والمخرجة المصرية ساندرا نشأت، مخيباً لأحد إنما المصادقة على توقعات نقدية وشعبية سبقت عرضه في صالات السينما التجارية. وفيه يستعيد مخرجه موضوعاً إشكالياً ظل يؤرق الذاكرة الفرنسية لسنوات طويلة، وكان أشبه بالتابو المحرم، ألا وهو الحرب الجزائرية. لكن قراءة فلوران جاءت مخالفة، وعلى عكس اشتغالات سينمائية كثيرة، منها ما هو متعاطف مع حركات التحرر الوطني كما في "معركة الجزائر" لجيلو بونتيكورفو، او استرجاع العلاقة التاريخية بين المستعمِر والمستعمَر مثلما نقلها الجزائري محمد لخضر حامينا الى الشاشة في شريطيه "ريح الأوراس" و "وقائع سنوات الجمر". او الغبن والنسيان وعدم المساواة الذي لاح بسوطه الشباب المنحدر من أصول شمال أفريقية في حروب فرنسا "الأم" والدفاع عنها، حسب صنيع رشيد بوشارب في "بلديون".

- إذ أحال فلوران تلك الحرب الى عذر درامي لمقاربة العدو الحقيقي القابع داخل أعماق الجندي والضابط الفرنسي، وليس ذلك الرابض على جبهات القتال وأعالي الجبال. إنه العدو الذي لا يتردد من ارتكاب فعل الحماقات والممارسات الهمجية والدموية، ويتفنن في أساليب التعذيب وممارسة سياسة الأرض المحروقة عبر رمي القنابل العنقودية والنابالم، والتي دفع ثمنها المدنيون الجزائريون والعُزل ثمناً غالياً. إن بطلي الشريط تيريان، ذي الفكر الإنساني والمثالي والذي عرف العالم من خلال الكتب، ونقيضه ضابط الاستخبارات بيرتو،الذي قاوم الاحتلال النازي لبلده وتعرض للتعذيب، يضعهما المخرج إزاء امتحان قيمي لآدميتهما ولوحشية الحرب.

- المسكوت عنه في الجانب الفرنسي قابله آخر، ولكنه من صناعة سورية. وجاءت عبر شريط "خارج التغطية"، الفائز بالجائزة البرونزية لمهرجان دمشق السينمائي الأخير، عرض ضمن فقرة (مسابقة الأفلام العربية)، لعبد اللطيف عبد الحميد. وفيه يطرق صاحب "رسائل شفوية" و "صعود المطر" و "قمران وشجرة زيتون" و "اختيار المستمعين" موضوعاً قلما قاربته السينما السورية، ألا وهو المعتقل السياسي. ويدور حول جهود بطله عامر (فايز قزق) في إطلاق سراح صديقه زهير(نضال سيجري) المعتقل لدى السلطات الأمنية، وتأمين المتطلبات اليومية لزوجة الأخير وأبنته. بعد عشر سنوات من الاعتقال، والمراجعات والوساطات، تنمو على الجانب أحاسيس ومشاعر بين عامر وزوجة صديقه. وبالمقابل، تبدأ الشكوك والهواجس تأكل عقل وقلب زوجة عامر، بفعل غيابه عن البيت والاهتمام المبالغ به بزوجة صديقه. لكن زيارة الأخيرة لزوجها في المعتقل، وفي مشهد مكثف، تتكشف عمق الهوة التي تفصل بين الاثنين. فهي لا تجد الكلمات المناسبة لكي تقولها وبحضور شرطي يرصد ويمرر الرسائل والصور بينهما، بينما الزوج يبادلها نظرات الريبة والشك. وما ان تنتهي الزيارة، وفي أثناء العودة، تطلب الزوجة من عامر التوقف وسط الطريق لتترجل راقصة على أنغام أغنية عراقية قديمة بصوت إلهام المدفعي. الإشارة سرعان ما يلتقطها عامر، وليتحقق له ولها رغبة مكبوتة وفي مشهد يستحضر الغياب في آن. اقترب عبد اللطيف، سواء بالتصريح او التلميح، من منطقة حساسة، وبحدود سقف المسموح به وتحت رنين هاتف بطله المتقطع، الذي استعار منه الشريط عنوانه.

- وعلى المنوال نفسه، قدم المصري أحمد عاطف شريطه "الغابة" ضمن (خانة) مسابقة الأفلام العربية. وفيه متابعة لظاهرة مشردي مدينة القاهرة من الأطفال، وما يتعرضون له من استغلال جنسي، فضلاً عن حياة العنف المسلط عليهم من قبل عصابات تنازع فيما بينها السيطرة على مناطق نفوذ، وتوظفهم في أعمال تطول الدعارة والسرقة والقتل وتجارة المخدرات. إلا ان الشريط وقع في أغلب فصوله في فخ الاستسهال والعجالة، بدلاً من الدراسة المتأنية لهذه الظاهرة التي تهدد مصير أكثر من مليوني طفل. لذا جاءت معالجته مخيبة في بنائها الدرامي، وضعيفة في لغتها السينمائية، وغير مقنعة في رصدها للظاهرة. ودليلنا مشاهد فارغة، مثل توزيع الهدايا بين المشردين من قبل عاملات او متطوعات في منظمة معنية بشؤون الطفولة، أو تلك التي تتم فيها عملية سرق الأعضاء البشرية علناً من عصابة متخصصة في هذا الشأن. والطريف هو سرعان ما ان ينتهي الشريط حتى يحضر في البال عمل "علي زاوا" للمغربي نبيل عيوش، والذي تصدى لهذه الظاهرة ذاتها في بلده، ولكن عبر قراءة متأنية وازنت بين حجم المشكلة وأسبابها واللمسة السينمائية والفنية الذكية.

الفنانة الإنجليزية جاكلين بيسيه

تكريمات

وكرمت الدورة الحالية، إضافة الى السينما البريطانية، وللسينما المغربية الجديدة، والرومانية، خصوصاً بعد النجاحات التي حققتها في الفترة الأخيرة وكللتها بفوز "أربعة أشهر وثلاثة أسابيع ويومان" لكريستيان مينجو، رهطاً من نجوم السينما العالمية. وعلى رأسهم الأميركي هاريف كيتل، ومواطنه مات ديلون والمخرج البريطاني نيكولاس روج والموسيقي كوينسي جونز، والمخرج والمنتج الجزائري محمد الأخضر حامينا. أما على الصعيد المصري، فقد كانت من نصيب الممثل أحمد رمزي ونور الشريف والنجمة نبيلة عبيد والمؤلف الموسيقي راجح داود وكاتب السيناريو مصطفى محرم والناقد السينمائي أحمد صالح. وخصت لجنة تحكيم المسابقة العربية بتنويه للبنانية نادين لبكي عن شريطها "سكر بنات" والمصري سعد هنداوي صاحب "ألوان السما السبعة".

في حين فازت الروسية تتيانا لتوفا بجائزة أفضل ممثلة عن دورها في فيلم "رؤية كاملة" وتناصفتها مع المكسيكية مارينا ماجروسوتو عن دورها في فيلم "أوبرا"، والذي فاز مخرجه خوان باتريشيو ريفرول بجائزة نجيب محفوظ لأفضل عمل أول. وذهبت جائزة أفضل سيناريو الى الفيلم الهولندي "ضربات" لمخرجه ألبرت تير هيردت، وحاز الفيلم التركي "في انتظار الجنة" لدرويش زايم.

سيرجييه باردجانوف .. سيرة ظلال الأجداد المنسيين

مقداد عبد الرضا

في التاسع من شهر شباط عام١٩٢٤ فاضت روحه الى الداخل " وفي تلك السنة تولى الشبح الاسود ستالين مقاليد الحكم " وفي مدينة تبليسي وعند نهاية شارع (مسخي) حط غراب الفراق فوق كتفي الطفل فاحاله وحيدا " غادر الاب البيت وكذلك فعلت الام " يجب انقاذ بيت الفراء بالطلاق لتكون حياتنا اكثر سعادة " علينا ان نتجه عكس ريح التلاقي " الكثير من الكتب والآثار النادرة يحتفظ بها الآب " هذه العدوى سوف تنتقل الى الفتى حين يكبر " في اثناء حملات التفتيش يعتقل الاب، لم تنقطع الام عن هدهدة الفتى وتدليله، نشأ ارستقراطيا يضع في راحة كفه مفاتيح ابواب ظلال الاجداد، ومن يمسك بمفاتيح هذه الابواب سوى اصحاب العقول الارستقراطية..؟ لم تخلق سينما من قبله، هكذا هو الحال " يقول:

- انا الافضل..

تسأله الناقدة خيرية البشلاوي في مقابلة لمجلة السينما " العدد ١٤- ١٩٧٠

- من يعجبك من مخرجي العالم؟

قال بثقة:

- سرجييه باردجانوف " هذا رأي حقيقي " لو كنت انسانا واقعيا لاصبح عندي بدلتان في الاقل "كنت ساصبح فنانا فاشلا لو امتلكت بدلة اخرى غير التي ارتديها..

في المشرق من ايامه البخيلة كان معلقا باشياء آسرة، تدهشه النقوش، ويعي قراءة الزخارف، حب غريزي للمجوهرات والحلي الثمينة والقطع الاثرية النادرة " لكنه طوح بها بعيدا بعد سنوات ليصنع من تراب الارض ايقونات ظلت خالدة ابدا " تستفزه الخطوط " عربات النذر " عربات الحديد " الجثث الحديدية " يدرس لمدة عام في معهد المواصلات، ثم المؤسسة النغمية لمدة عامين " ويحل عام الخصب (١٩٤٥) ليلتحق بالمعهد العالي للسينما في موسكو ويتخرج في عام ١٩٥١ حيث نهل من رجال السينما السوفييت الذين ادهشوا العالم،ولكي يرضي نهمه للصورة راح يتعلم في ستديو كييف مساعدا لأستاذه (ايكور سافجينكو) الذي احبه بشكل كبير طوال حياته " في عام ١٩٥٤ يضع ابهامه فوق اول عمل له (اندرييش) –خيال لاينضب –كرة يحملها بين كتفيه تبعده عن السائد واليومي، يفكر في عمل جاد، لكنه يرتطم بجدار النظام الصارم،يخفي ضجره خلف ظهره ويمد يده الاخرى الى منتج حاول استغلاله:

- عندما بدأت العمل في فيلم (الرجل الاول) اكتشفت ذلك، لكن رؤيتي القرية الاوكرانية كانت اثيرة الى نفسي " تعلمت فيها ايقاع الشعر وخارطة لجمال لايحد، حاولت ان ارسم ذلك فوق الشاشة، لكن الدسائس التي كانت تحاك ضدي انهت كل شيء واحالت صورة (ظلال الاجداد المنسيين) الى نثار، الات التصوير، النصب الرائعة، الرافعات، تناثر التبن في هواء الدسائس الاسود واحاله الى ابر تنغرز في قلبي المسكين، ولم اتعطل، انا مخلوق للعمل وها انذا، (دمكا ١٩٥٨)، (ناتاليا اوزي في ١٩٥٩)، (الايادي الذهبية ١٩٥٩)، ثم الافلام الطويلة، (الرابسوي الاوكراني ١٩٦١)، (زهرة فوق الحجر ١٩٦٢)...

باحساسه العالي طوح بالبائس بعيدا وبقي نقيا " ذات صباح اربعيني حدث نفسه أن تكون اوتبدل مهنتك " واصر على البقاء بشكل يستحقه..

- اذا كان الفنان قادرا على الخلق وغير وجل من نفسه بامكانه ان يخلق صرحا لحياته..

ويحضر الاجداد المنسيون في عام ١٩٦٤ " هذا هو اول مؤشر له كي يتغلب على مشاعرالوحشة والالم..

- عندما احكمت قبضتي على قصة (كوتسبينيسكي) شعرت بانني عاشق لامستقر له " كل شيء امامي عظيم ورائع " الهارموني اللامتناهي، شعور غامر بالغبطة ولو لحين، الطبيعة تحتضن الفن وكذلك تفعل الطبيعة..

يحمل ادواته ويقارع، يحث الخطى حيث لاسينما قبله، يكتشف ويصرخ مندهشا كطفل لاكتشافه، بل يكاد يجن لهذا الاكتشاف، لكن الطحالب تنمو ابدا في محاولة للالتفاف حول اعناق المواهب المتحررة، لم يفهمه الكثير، في اثناء التصوير صدم المصور (يوري أليانكوف) والممثلة (لاريسا كادوجونكوفا) لما شاهداه، ورفضا الاستمرار في العمل، لكنه في النهاية تمكن من اقناعهما، يوبخه مدير الاستديو اكثر من مرة خلال تصوير مشهد واحد " وتاتي النهاية، لقد حصد الفيلم ١٤ جائزة في مهرجانات عالمية مختلفة " انعش الثقافة واطرب النقاد في جميع انحاء العالم، انه فيلم (ظلال الاجداد المنسيين)، حلق باردجانوف عاليا خارج السرب كعادته، لقد سبب حضوره الطاغي ردة فعل كبيرة من قبل الستار الحديدي، حيث لم تكن افكاره تتلاءم مع الوضع انذاك " يخاطب عمال ستديو كييف:

- ان مآسي عصرنا هذا تعود الى تفكك الفنانين انفسهم، كما ان قدراتنا لم تعطنا اى شيء، انها كذب، وعقولنا صغيرة وذات ثقافة محدودة لاتعي الموسيقى ولا الادب، وليس لدينا اى اهتمام جدى بالفن، ان مدير التصوير ومساعده ليست لديهم الا قدرات محدودة جدا، وهما في الآخر عبء ثقيل على الفن، لقد اعتدنا ان نحب امراضنا ونكون عبيدا لها، وليس غريبا ان نستبدل جوهر الجيد بمواضيع بائسة " ان هذه الامور تكاد تعصف بي..

في عام ١٩٦٦ بدأ باردجانوف تصوير فلمه (فنون كييف)، لكن الاوامر سرعان ماصدرت بايقاف المشروع، جرد من حقوقه كلها واوقف عن العمل لسنوات عدة،وفي النهاية يجد نفسه مرميا خارج الستار (ياخذ الزمن دورته " كيف روع ستالين العبقري آيزنشتاين واعاقه عن العمل لعدة سنوات) لاشك انه الطريق الذي ينتهي الى الياس، لكن تلك مفردة ظل ينأى بعيدا عنها.. يقول:

- مازلتم تتمتعون بقصور عال في فهم جهدي الابداعي، انتم وطاقم مؤسستكم اجبرتموني على مغادرة ستديو كييف والسينما بشكل عام، اشكر لكم قسوتكم ووحشية ماقمتم به، والمراقبة الدقيقة طوال الثمانية عشر عاما والتي لم اعمل خلالها سوى خمس سنوات...

في عام ١٩٦٦ يغادر الى ارمينيا، وينفذ (سايات نوفا) والذي اطلق عليه فيما بعد (لون الرمان) " توقف العمل في الفيلم عدة مرات، لكنه كان ينشغل بتصوير فيلم قصير (آكوب هوفنتيان) عن فنان من القرن التاسع عشر عاش في تبليسي، كانت نشاطات باردجانوف في ارمينيا تبعث على اعطاء تاثير كبير ومنعش لجو الثقافة القومية، لقد استطاع ان يجمع حوله الكثير من المبدعين حيث الحلقات الثقافية التي كانت تنظم انذاك " في عام ١٩٦٨ وفي ستديو (ارمينفلم) اكمل مشروعه لفيلم (لون الرمان) حيث الروح العالية التي سادت (ظلال الاجداد المنسيين)، وبهذا يكون قد وصل الى مرحلة التفوق " لكنهم بالمرصاد له ايضا " دائرة (كوسنكو) تطلب اعادة اجزاء من الفيلم بحجة الشكل والتعارض الشديد مع الحقائق التاريخية، حتى وجه اليه لوم شديد لاختياره اراضي قاحلة للتصوير، بدوره اعلن هو الحرب..

- ان ماقمتم به هو بمثابة ارباك وتدمير لفيلمي (سايات نوفا) بتهمة التعارض مع المشاعرالقومية والصور الجميلة المنبعثة منه لوي اراكون، نجحا اخيرا في اخذ اذن مباشر من ليونيد برجنيف بالافراج عنه عام ١٩٧٧، وقبل الموعد المقرر للافراج... وضع تحت المراقبة المشددة، استقر في تبليسي من دون عمل، سرعان ما الصقت به تهمة اخرى قضى بسببها عدة اشهر بانتظار المحاكمة، لقد وجد المحلفون انه غير مذنب لكنه مدان بنشاط غير مؤثر " في عام ١٩٨٣ وبتدخل من شنكلايا وسوفكو تاجيورلي وكذلك لرجاء من ادوارد شيفرنادزة السكرتير الاول للحزب الشيوعي في تبليسي، سمح له بالعودة الى السينما " يطل عهد (البيروسترويكا) حيث انطوت صفحة مضى عليها سبعون عاما وجاءت اخرى علها تنفع في مسيرته ويكون ذا شان " لكنهم اغفلوه مرة اخرى " عام ١٩٨٥ اقام اول معرض له في دار السينما في تبليسي، حيث عرضت له ملصقات كرافيك، لوحات ولعب، اعمال سيراميك " لقد نجح المعرض نجاحا كبيرا على الرغم من محدودية الزوار، اما المعرض الثاني الذي اقامه في عام ١٩٩١ فقد كان علامة فارقة في تاريخ هذا المبدع الكبير " لقد اوجد عالمه الخاص..

- اذا لم يكن هذا العالم اسطورة، فالعالم والاسطورة ركنان اساسيان في احاسيسنا، مثل وردة وثمرة لاتسمو واحدة من دون اخرى، الاسطورة ادراك (هوميروس) للعالم ببصيرة نافذة " رهن عينيه ومضى يتطلع ببصيرته " تبدأ الاسطورة وتنمو باستقامة روحية في اطار حسي اخاذ...

سجنه ملصقات سحرية واشتغل في صنع الفخار واستطاع ان يعلم السجناء الرسم " كتب الى اخته يقول:

- على ان اظل هكذا واقفا في مكاني اراوح، هاهي المقادير تقذف بي الى السجن مرة اخرى، انني متالم من الافتراء علي " انها لقسوة، يسكن معي سجناء منذ زمن بعيد " قتلة " مدمنو مخدرات " توجد هنا الاف القضايا المروعة " ماذا يجب علي ان افعل في هذا المكان الموحش، لن ارجع الى السينما، لقد حطمتني " من يهتم بي انا المعدم؟..

وعلى الرغم من كل هذا العذاب، اهتم به الكثير، ثمة جمعية مناصرة له في اوروبا والاتحاد السوفيتي نفسه " اندريه تاركوفسكي، وفكتور شايكوفسكي، وعدد من الشخصيات المثقفة، لقد قاموا بدور الوساطة بشتى الوسائل، تناهى له ذلك، لكنه ادرك بحدسه ان لن يفرج عنه..

- في كل لحظة اتعرض للاستفزاز من متحدث يفهم نياتي بشكل خاطىء وانا سعيد بذلك، اذا كانت هناك ملاحظات حول افلامي فهذا يعني انني اجيد الضرب على ايقاع الحياة برمتها...

توسلات كبيرة من قبل (ليلي بليك) اخت زوجته وكذلك صديقه واحد معجبيه الشاعرالعظيم لوي اراكون، نجحا اخيرا في اخذ اذن مباشر من ليونيد برجنيف بالافراج عنه عام ١٩٧٧، وقبل الموعد المقرر للافراج... وضع تحت المراقبة المشددة، استقر في تبليسي من دون عمل، سرعان ما الصقت به تهمة اخرى قضى بسببها عدة اشهر بانتظار المحاكمة، لقد وجد المحلفون انه غير مذنب لكنه مدان بنشاط غير مؤثر " في عام ١٩٨٣ وبتدخل من شنكلايا وسوفكو تاجيورلي وكذلك لرجاء من ادوارد شيفرنادزة السكرتير الاول للحزب الشيوعي في تبليسي، سمح له بالعودة الى السينما " يطل عهد (البيروسترويكا) حيث انطوت صفحة مضى عليها سبعون عاما وجاءت اخرى علها تنفع في مسيرته ويكون ذا شان " لكنهم اغفلوه مرة اخرى " عام ١٩٨٥ اقام اول معرض له في دار السينما في تبليسي، حيث عرضت له ملصقات كرافيك، لوحات ولعب، اعمال سيراميك " لقد نجح المعرض نجاحا كبيرا على الرغم من محدودية الزوار، اما المعرض الثاني الذي اقامه في عام ١٩٩١ فقد كان علامة فارقة في تاريخ هذا المبدع الكبير " لقد اوجد عالمه الخاص..

- اذا لم يكن هذا العالم اسطورة، فالعالم والاسطورة ركنان اساسيان في احاسيسنا، مثل وردة وثمرة لاتسمو واحدة من دون اخرى، الاسطورة ادراك (هوميروس) للعالم ببصيرة نافذة " رهن عينيه ومضى يتطلع ببصيرته " تبدأ الاسطورة وتنمو باستقامة روحية في اطار حسي اخاذ...

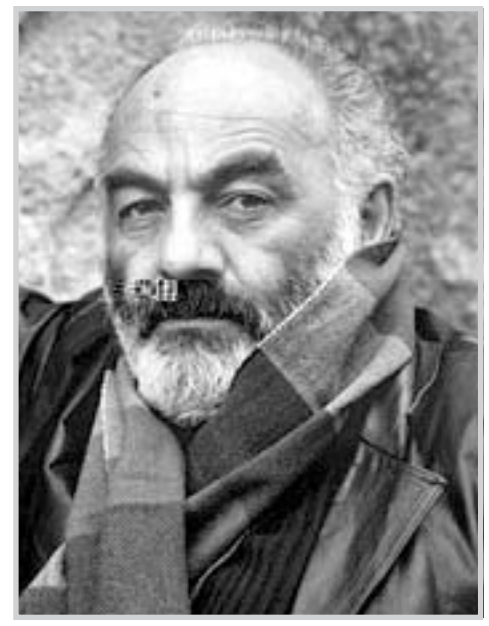
سيرجييه باردجانوف

بالجوهر المكتمل وبكل حياته المضطربة يخلق باردجانوف الاسطورة من طين الارض " (ظلال الاجداد المنسيين) بقايا اثار سحقت وماتت تلقائيا في ضمائرنا، لكنه يمارس سحره الخاص ليعيد تكوين الميت بالق رائع " انه لامر سهل ان يبقى الاجداد يمارسون حياتهم معنا، على الرغم من سفرهم البعيد، ان الطوبوغرافيا والزمن في اسطورة باردجانوف هما استثناء صعب للغاية " حياة بين العدم واعادة التشكيل " برزخ بين الحلم واليقظة، والابطال جميعا ممثلين كانوا ام ملصقات، كالمخلوقات النائمة في فضاء رحب لايحده شيء..كل اسطورة تحمل خصوصيتها المتميزة " فالخيال التشكيلي الاغريقي لاعلاقة له بالهندي، ولاعلاقة للخيال الهندي بالازتك، ولا للاخير علاقة بالفرعوني " هذا كله جعل باردجانوف يكسر طوق المألوف في الاسطورة الارمينية ويمازجه مع الاساطير الاخرى لينجز هارمونيا رائعا وكبيرا " منذ عهد (سايات نوفا) لم تعرف الثقافة احدا استطاع ان يشبع جو المعرفة " وحده باردجانوف فعل ذلك، اذ استطاع ان يخلق أنموذجا مضاءا بعبقريته لنماذج ارمينية واوكرانية وجورجية وتركية ليصبها في بوتقة السينما، اعمال مثل (معجزة في اودنس) و (اغنية رفيق ايكور) اضافا انجازا مهما للسينما الروسية والدنماركية، لكنهما لم يعطياه الفرصة الكاملة للابداع مثلما فعل في (ينبوع بقجه سراي) و (لارا الجميلة) و (كنوز ايجمازن) ثم (داود وسوزان).. بعد سبعة عشر عاما من سايات نوفا، وبالتحديد عام ١٩٨٥ ظهر عمل باردجانوف الجديد (اسطورة قلعة سورام) الذي صوره في مشاهد قصيرة " " عام ١٩٨٧ ينجز اخر افلامه (ashik greeib) في ستديو كروزيا وحقق فيه نجاحا منقطع النظير " واعتبر من اهم الافلام في تاريخ السينما... بعد تجاوزه الستين يحلق أول مرة الى باريس واسطنبول ونيويورك وروتردام وفينيسيا، ويحط اخيرا في يريفان " منح فرصة اخرى للعمل في ستديو (ارمينفلم) لكن الهمة كانت قد غادرته، بدأ التصوير في فيلم الاعتراف بامكانات ضخمة وجو مملوء بالنقاء، لكن الزمن مميت، هاهو يقف بالمرصاد على بعد ثلاثمئة متر من موقع التصوير " اصدقاؤه وعصاه التي يتوكأ عليها " يلامس الاشياء ببطء " لاشيء اكثر من (نعم) و (لا)، هما مفتاح الحياة التي بدات تتسرب " تمتمات " ربما اراد ان يقول لنا وداعا لكن زمننا رهن اذنيه فلم نسمعه " انه يقف في البرزخ، جسده مسجى في جب العظماء في ارمينيا... في عام ١٩٩١ افتتح متحف باردجانوف في مدينة يرفان " احتوى على نفائس روحه المحلقة " اسطورته الخاصة التي هي شاهد على عبقرية هذا العبقري المتألم.

في فيلم (عند بابك تماماً) ..لا شيء يقتل الحب كالحرب الكيميائية

ترجمة / المدى

إن الفظائع الانفعالية التي ستكون في مركز فلم " عند بابك تماماً " Right at Your Door للمخرج كريس غوراك، وهي انحدار محسوب عبر مراحل متنوعة من اليأس، تخفف منها مقدمة منطقية صارمة جداً. فوسط زحمة وضجيج التنقل الصباحي في لوس أنجلس، تنفجر سلسلة من القنابل القذرة، مطلقةً سحابةً سامةً من الرماد تمطر على المشهد الطبيعي، مهددةً بقتل ١٠ ملايين شخص.

في الماضي - لنقل ما قبل عام ٢٠٠١ - كان الاغراء القاتم لصوت انفجار قنبلة نووية سيدور حول المشهد المروع لسحابة الفطر، المجزرة الواقعة عند المركز السطحي، وهستيريا أولئك الذين يعتقدون بأنهم قد فقدوا عزيزاً عليهم في الهجوم. وعلى العكس من ذلك، فإن ما هو مفيد جداً فيما يتعلق بفلم السيد غوراك هو الطريقة التي جُددت بها معلومات رؤيته بالنسبة لوجهة النظر العالمية المتعلقة بما بعد أحداث ١١ أيلول. فهذا الفلم، الذي يبدو اهتمامه بالفظائع القريبة أقل من اهتمامه بالاحساس الحاصل بعيداً بالفزع الذي يشوش الضواحي، منشغل بأمور مثل إتلاف شبكة الهاتف الخليوي، والاحساس المترسخ بأن الحكومة ستكون عقيمة التفكير تماماً كالرأي العام عندما حل اليوم الأسود.

وفي المقدمة هنا شخصيتان مطوقتان بإحكام بثقافة معرفة كلية مستغرقة في تكنولوجيا اليوم: ليكسي (وتمثل دورها ماري ماكورناك) وبراد (روري كوجرين)، اللذان نقابلهما وهما يقومان بروتينهما الصباحي المضجر. وتصبح ليكسي مستعدةً للذهاب إلى العمل بينما براد، الذي يُرى هنا قبالة نسق من الغيتارات والمكبرات الكهربائية، يستمع إلى أخبار الصباح ويعطيها معلومات في السياقة تساعدها في تجنب الطرق المعرقَلة. وهكذا تندفع إلى العمل، وهو يتهيأ للاستحمام وتنظيف أسنانه، حين يحدث توقف مع صرخة ذعر في الراديو وفق ما يقتضيه نظام بث الطوارئ.

وحيث تندمج تقارير الإذاعة الغامضة عن انفجارات مع روايات مرتعبة من مراسلين يتحدثون بالهاتف الخليوي، يصبح حجم ومجال الهجوم في البؤرة: قنابل كبيرة - أطلقت على طول الطريق العام، وسط مركز المدينة، وفي لاكس. قد انبعثت منها موجات من التوكسينات (السمية) الاشعاعية في الفضاء. فينتزع براد، وهو مفزوع، هاتفه النقال، ثم خط هاتفه الأرضي، ويحاول الاتصال بزوجته. غير أن الخطوط تكون بطبيعة الحال مشغولة، وهكذا يقفز إلى داخل سيارته ويحاول التسلل عبر حواجز الشرطة المتنوعة على الطرق.

وفقط عندما يخرج براد بسيارته عن الطريق وينفجر إطار من عجلاتها، يبدأ بإدراك كم هو رهيب قد أصبح الموقف الآن. وبينما هو يبحث عن رقعة إطار في محل خردوات، يشاهد مندهشاً امرأة تختطف كل لفة شريط تجدها هناك. وعندما يتضح له أن الهجوم قد بدأ فقط للتو، يختطف تجهيزاته، ويهرع عائداً إلى البيت، ويشرع في ختم كل نافذة وباب هناك.

وبموجب كثرة ما يكرر مراسلو الآذاعة من مقاطع مقدسة، يكون من السهل إدراك من أين يوجه هذا الخبر: " لا تقدموا أية مساعدة طبية لأولئك المصابين في الانفجار "، يكرر الراديو، " يجب وضعهم في الحجر الصحي. "ويحصل ذلك، بالطبع، في الوقت الذي تعود فيه ليكسي إلى البيت، وهي مدماة وتسعل، فتواجه براد الورطة الأخلاقية التي لا تخطر في البال.

وحيث أن الفلم مصور بحيادية من قبل مخرج المرة الأولى، الذي يستخدم طريقة وثائقية غيرحكيمة تضع الكاميرا على مقعد مجاور لبراد حين يجتاز الطريق العام وإلى جوار ليكسي

وهي تخطو خارج الباب الأمامي، فإن من الجدير بالملاحظة أن الممثلة ماكورماك والممثل كوجرين على مقدرة واضحة لبناء شخصيتين متماسكتين تحت مثل هذه الظروف التمثيلية المستحيلة. فبالنسبة للصف الأول من الفلم، يكون براد وحيداً على نحو مؤثر، أم خلال النصف الثاني، فهو ينغمر في بعض أكثر المحادثات عاطفية مع زوجته وهي متخيلة - فجميعها تحصل من خلال طبقات من الزجاج والبلاستيك.

فليكسي، أيضاً، مقطوعة لا عن براد فقط بل وكذلك عن أفراد أسرتها، الذين يتصلون تكراراً بهاتفها الخليوي، بينما هناك قطعة من البلاستيك مثبتة إلى أذنها.

ومن الواضح أن براد مشغول الفكر بالقرارالذي يواجهه، بشأن ما إذا كان الحب الحقيقي يعني الموت مع حبيبته أم يعني البقاء آمناً لضمان أن تحصل هي على المساعدة التي تحتاجها.

لكن بفصلهما على النحو الذي يفعله السيد غوراك، فإن المعاناة غير مسبوقة، وغير قابلة للتصديق آنذاك. وكتمرين فكري، فإن فلم " تماماً عند بابك " يتسم ببعض الضربات - كتأمل في ما سيتطلبه الأمر للبقاء على قيد الحياة حين يكون محبوبك أكبر تهديد لبقائك أنت، وكاختبار للكيفية التي سيسبب بها النثار الاشعاعي قدراً كبيراً من الدمار بقدر مجال الانفجار الأولي.

ولكن ليس هناك حيّز كبير لتفاعل إنساني ملموس ضمن هذا الإطار. فهناك، أساساً، قراران عاطفيان ينبغي اتخاذهما: هل سيظل براد يسوق ليجد ليكسي؟ وحين تعود، هل سيدعها براد داخل البيت بالرغم من الخطر؟ حالما يتم عبور هذين الجسرين، نكون في طريق مسدود قصصي، وتتحول القصة إلى عقدة من الخوف والغضب.

ويذكّرنا هذا بـ " على الشاطيء On the Beach "لنيفل شوت، وهي قصة حول زمرة من الاستراليين، هم آخر من بقي على كوكب الأرض، ينتظرون وصول سحابة مشعة تطوف حول الكوكب بعد حرب نووية أنهت الحضارة عليه. وبداً بيد، يواجهون المعركة الفاصلة (هرمجدون)، وربما كان فلم "تماماً عند بابك" هو التحول الساحر الحديث إلى ذلك التصور.

عن / The Sun